

خلفيات الاستشراق وتأثيره على الأدب الكولونيالي في الجزائر

The backgrounds of orientalism and its impact on colonial literature in Algeria

د/فاطمة الزهراء عقال¹¹جامعة يحي فارس بالمدينة / الجزائر، akkal.fatimazohra@univ-medea.dz

تاريخ الاستلام: 2023/07/13 تاريخ القبول: 2023/12/16 تاريخ النشر: 2024/01/31

ملخص:

إذا كانت الحروب هي الواجهة العسكرية للصراع بين الشرق والغرب، فإنّ الاستشراق هو الواجهة الفكرية لهذا الصراع وخلفيته أيضا. كان المستشرقون القوة العلمية المساندة للقوة العسكرية الغربية التي واجهت المسلمين على مر العصور، فالاستشراق لا يزال جزءاً لا يتجزأ من قضية الصراع الحضاري بين العالمين الإسلامي والغربي، ويمكن أن نقول أنّ الاستشراق يمثل الخلفية الفكرية لهذا الصراع. فقد أفاد الاستعمار من الاستشراق، وتزامنت مرحلة التقدم الضخم في مؤسسات الاستشراق وفي مضمونه مع مرحلة التوسع الفرنسي في الجزائر، وأهم الأعمال الأدبية التي جسدت الاستشراق ظهرت في الجزائر من تأليف عدد من كتاب أدب الرحلة مثل موباسان، فرومنتان، إبرهات الذين ساهموا في التعريف بالجزائر، منهم منعمل على تبرير الاستعمار، ومن كانت خلفيته فكرية علمية بحتة، وهذا ما سنحاول كشفه من خلال دراستنا.

كلمات مفتاحية: الاستشراق، الصراع الحضاري، الخلفية الفكرية، أدب الرحلة، الجزائر، الاستعمار.

Abstract :

If wars are the military front of the conflict between East and West, then orientalism is the intellectual facade of this conflict and its background as well. The orientalist were the scientific force that supported the western military that faced Muslims throughout the ages. So orientalism was and it still an integral part of the issue of the civilizational conflict between the

Islamic world and the western world, we can say that orientalism represents the intellectual background of this conflict, it is also one of the most important literary works that embodied orientalism appeared in Algeria.

It was written by a good number of travel literature such as Maupassant, Fromentin, Eberhardt and others, who contributed to the definition of Algeria. Each work carried with it an intellectual background, some of them were to justify colonialism, and some of them had a purely scientific intellectual background and this is what we are trying to uncover through our study contents of the article.

Keywords: Orientalism; Civilizational conflict; Intellectual background; Travel literature; Algeria; colonialism.

1. مقدمة:

تعدد المستشرقون وتعددت الاستشراقات حسب بلدانهم، فالاستشراق الفرنسي يختلف عن الإنجليزي وكلاهما يختلف عن غيرهم من الاستشراقات كالأمريكي والهولندي والروسي، لكن هناك قاسما مشتركا يجمعهم هو دراسة الحضارة الإسلامية بكل جوانبها، ويرجع هذا التعدد إلى طبيعة العلاقة بين بلدان الغرب والأمة الإسلامية، فكلما كان الاحتكاك أكثر، نشط الاستشراق وازدهر، وكلما قلّ الاحتكاك ركد وتقلص. ولعل الأكثر اهتماما بالعالم الإسلامي وحضارته، الاستشراق الفرنسي، لما لفرنسا من مكانة دينية وسياسية وثقافية في الغرب، فهي كانت رائدة، ولما لها من احتكاكات دائمة مع الشرق، وذلك في الحروب الصليبية وخلال الاستعمار ومن خلال الغزو الثقافي. والجزائر من أكثر دول الشرق التي اهتمت بها فرنسا، فهي كانت دائما حاضرة في كتابات المستشرقين الفرنسيين ولها مكانة خاصة ومتميزة، لقد كانت جُلّ الدراسات الاستشراقية للجزائر مرتكزة على العقيدة الإسلامية، ومنذ استعمار فرنسا للجزائر أصبحت الحقل الأهم للاستشراق، وسعى الفرنسيون على استنزاف هذا البلد من خلال استنزافها ماديا وروحيا، وخاصة أنّ معظم المستشرقين الفرنسيين كانوا مترجمين عسكريين، وارتبطت أهدافهم بالتوسع الاستعماري، ولقد ارتكزت الحركة الاستشراقية الفرنسية على طمس الهوية الجزائرية من خلال استحواذها على المصادر التي تحتوي على تاريخ الجزائر وتراثه، ألا وهي المخطوطات، في دراستنا هاته سنحاول الكشف عن خلفية الاستشراق الفرنسي في الجزائر، وكيف سعت فرنسا بشتى الطرق دراسة المجتمع الجزائري لأغراض استعمارية مستعينة بالمستشرقين وبالكتاب الفرنسيين الذين عدّهم الكثيرون من المستشرقين؟

2. الاستشراق والمستشرقين:

يعد الاستشراق من الأساليب الاستعمارية التي يعتمد عليها العالم الغربي إلى جانب الأساليب المسلحة والأساليب الأخرى والتي كانت لبسط السيطرة على الشعوب المستعمرة وطمس هويتها، ولقد انصبّت اهتماماتهم على دراسة النصوص التراثية التي تزخر بها المكتبات الشرقية، وخاصة أنها تعتبر بمثابة الصورة الناطقة لشتى مناحي الحياة الثقافية والأدبية والاجتماعية والسياسية والدينية.

الباحث عن تعريف للاستشراق سيجد نفسه أمام عدد هائل من التعريفات، لذلك على الباحث التطرق إلى البعض منها فقط لكشف اللبس عنها، "الاستشراق واقع معرفي مارسه أوروبا على الشرق، وقد تراكمت هذه المعارف وترسخت في تقليد، وانتظمت في نسق له مقدمات ونتائج، ويعمل بتقنيات ومناهج مخصوصة" (الكبيسي، 2005، ص21)، يقول إدوارد سعيد: "كل من يقوم بتدريس الشرق أو الكتابة عنه أو بحثه ويسري ذلك سواء أكان المرء مختصا بعلم الإنسان (الأنثروبولوجي) أو بعلم الاجتماع، أو مؤرخا في جوانبه المحددة والعامة على حد سواء، هو مستشرق، وما يقوم به هو أو هي بفعله هو استشراق" (سعيد، الاستشراق، 1995، ص38)، وبذلك حدد إدوارد سعيد مفهوم الاستشراق وجعل موضوعه الشرق دون سواء، والشرق المسلم خاصة، ورأى أنّ كل غربي يقوم بهذا الفعل هو مستشرق، وعن أسباب ظهور الاستشراق وغايات المستشرقين وأهدافهم قال: "الاستشراق كأسلوب غربي للسيطرة على الشرق واستنباء وامتلاك السيادة عليه" (سعيد، الاستشراق، 1995، ص36).

إنّ مصطلح الاستشراق وإن اختلفت الآراء في تحديد مفهومه، هو مصطلح حديث الظهور إذا قورن بوجوده كنتيجة لتفاعل واحتكاك الشرق والغرب لظروف تاريخية وعوامل جغرافية، لأنه لم يتداول إلا في القرن التاسع عشر، وهو ترجمة لـ: "

Orientalise التي ظهرت في بريطانيا عام 1911، وللمصطلح الفرنسي Orientalisme التي عرفته عام 1830، قبل أن يدرج رسميا في قاموس الأكاديمية الفرنسية سنة 1883. (بن إبراهيم، 2004، ص28). لقد عرف أحمد عبد التواب الغراب الاستشراق: "هو دراسات أكاديمية يقوم بها غربيون كافرون-من أهل الكتاب بوجه خاص- للإسلام والمسلمين من شتى الجوانب، عقيدة وشريعة وثقافة وحضارة ونظما وإمكانات... بهدف تشويه الإسلام ومحاولة تشكيك المسلمين فيه وتزليلهم وفرض التبعية للغرب ومحاولة تبرير هذه التبعية بدراسات ونظريات تدعي العلمية والموضوعية، وتزعم التفوق العنصري والثقافي للغرب المسيحي على الشرق الإسلامي" (الموسوعة العالمية، مؤسسه أمال، ص 713)

الاستشراق هي حركة سياسية أكثر منها فكرية، فالاستشراق وأقطابه قد احتوتهم السياسة فخضعوا لها، وخدموا أهدافها النيئة، فهي حركة ارتبطت وتهيكلت بالدوائر السياسية، فنجد نتاج أعمالها استنقاص لحضارة الشرق، فنجد محمد البهي يقول في ذلك: "إنّ التبشير والاستشراق كليهما دعامة الاستعمار في مصر والشرق الإسلامي، فكلاهما دعوة إلى توهين القيم الإسلامية الحاضرة، والغض من اللغة العربية

الفصحى، وتقطيع أواصر القرى بين الشعوب العربية، وكذا بين الشعوب الإسلامية، والتنديد بحال الشعوب الإسلامية الحاضرة، والازدراء بها في المجالات الدولية العالمية" (البهي، 1973، ص519).

وكذلك أخذ مصطلح الاستشراق نصيباً واسعاً من تعاريف الغربيين فيعرفه سميلوفتش بأنه: "هو انشغال غير المسلمين بعلم المسلمين، بغض النظر عن وجهة المشتغل الجغرافية وانتماؤه الدينية والثقافية والفكرية" (سميلوفتش، 1998، ص23). كما أنّ إبراهيم صحراوي يعرف لنا الاستشراق في مقدمة كتاب دانييل ريغ المعنون بـ: "رجل الاستشراق، مسارات اللغة العربية في فرنسا" بقوله: "الاستشراق نشاط فكري نشأ في الغرب، أي في أوربا، اتخذ الشرق مادةً وموضوعاً. والدارس الذي يمارس هذا النوع من النشاط يسمى مستشرقاً، أي مشتغلاً بدراسة آداب الشرق ولغاته وحضارته وكلّ ما يتصل بحياة شعوبه عبر العصور" (ريغ د.، 2008، ص9)، يمكن اعتبار أنّ الاستشراق التخصص الذي لم ينشأ بالصدفة وإنما كان نتاجاً لعدة عوامل تاريخية، دينية، تبشيرية واستعمارية واقتصادية، فطالما شكل الشرق العالم المجهول، الساحر الذي لزم على الباحثين فيه كشف خباياه.

يعتبر العامل الديني من أهم عوامل البحث عن الشرق، شكّل ظهور الإسلام الدافع الأهم لهؤلاء المستشرقين للغوص في هذا العالم الجديد الغريب عنهم، ولقد كان العرب من أولى الأجناس التي جعلتهم يدرسون ذاك الفضاء الشاسع بكل مكوناته، "ولعله من الضروري الإشارة في هذا المقام إلى أنّ الشرق يتجاوز لدى الغربيين الإطار الجغرافي المعروف، أي : القارة الآسيوية بجزئها: العربي والهندي الصيني الإيراني إلى شمال أفريقيا وغيرها، لأنه ينصرف في عرّفهم إلى كل البلاد التي يدين أهلها بالإسلام وتتواجد بها العربية أينما كان موقعها" (ريغ د.، رجل الاستشراق، مسارات اللغة العربية في فرنسا، 2008، ص10). يعود تاريخ ظهور الاستشراق إلى بداية الدولة الإسلامية ومنهم من يؤكد على أنّ الروم عكفوا على دراسة المسلمين أثناء مواجهاتهم لهم في حروبهم، وحتى من خلال رحلاتهم التجارية والدينية، إن أخذنا مثلاً رحلة ماركو بولو نحو الشرق حتى وصوله إلى الصين، وكانت رحلته الطويلة من خلال طريق الحرير الذي كان الرابط بين دول الشرق كإيران وأفغانستان وصولاً إلى الصين، ومن خلال كتابه نجد وصفاً لتلك المناطق وشعوبها، كما أنّ المبشرين كان لهم دور كبير في ظهور الاستشراق، لكن مصطلح الاستشراق لم يُعرف إلا مؤخراً "يُستعمل مصطلح الاستشراق منذ 1838م للدلالة على الشغف والافتتان بأمور الشرق، اللذين انتشرا أثناء الفترة الرومانسية، على أنه يعني أيضاً الدراسات المخصصة للغات شعوب آسيا وثقافتهم وأخلاقها من البحر الأبيض المتوسط إلى بحر اليابان، لكن يبدو أنّ العالم الذي نذر نفسه لمثل هذه الدراسات قد سُمي مستشرق قبل ذلك بكثير" (ريغ د.، رجل الاستشراق، مسارات اللغة العربية في فرنسا، 2008، ص17)، لكن دراسات كثيرة بينت أن هذا المصطلح وجد منذ سنة 1799م، وذلك في أحد أعداد

المجلة الموسوعة " العالم المستشرق الأب بولينوس"، ولكن لم يُعترف به من طرف الأكاديمية إلا سنة 1835م، كما نجد سيلفستر دي ساسي Sylvestre Desacy (1758-1838) م من الأوائل الذين استخدموا هذا المصطلح وكان ذلك عام 1810م في مقدمة كتاب "القواعد" لما تحدث عن إيرنيوس Epernius. (ريغ د، رجل الاستشراق، مسارات اللغة العربية في فرنسا، 2008، ص17-18).

3. تاريخ الاستشراق:

في الحقيقة لا يُعرف بالضبط من أول الغربيين الذي اهتم بدراسة الشرق، ولكن مما لا شك فيه أنّ الرهبان الذين قصدوا الأندلس في أيام مجدها ليتفقهوا ويأخذوا العلوم من جامعاتها بترجمتهم للقرآن الكريم ومختلف العلوم إلى لغتهم هم اللبنة الأولى لظهور الاستشراق كما نعرفه اليوم. ومن أوائل هؤلاء الرهبان نجد الراهب الفرنسي "جربرت" الذي انتخب بابا لكنيسة روما عام 999م بعد تلقيه للعلوم في الأندلس، بالإضافة إلى الراهب "بطرس المحترم" (1092-1156م)، وأيضا "جيرار دي كريمون" (1114-1187م)، وبعد أن عاد هؤلاء الرهبان إلى بلادهم بدأوا بنشر ثقافة العرب ومؤلفاتهم والتعريف بأشهر علمائهم، ثم أسست المعاهد للدراسات العربية أمثال مدرسة "بادوي" العربية، كما أنّ الأديرة وهذه المدارس شرعت في دراسة مؤلفات العرب المترجمة إلى اللاتينية، واستمر هذا الوضع حوالي ستة قرون. (محمد، الاستشراق بين الحقيقة والتضليل (مدخل علمي لدراسة الاستشراق)، 2000، ص14). يمكن القول أنّ الاستشراق هو وليد الاهتمام الكبير الذي أولته أوروبا لبلدان ما وراء البحار، لكن تاريخه بدأ مع حملة نابليون على مصر، رغم أنّ البدايات الحقيقية كانت في القرن السادس عشر وقبله بكثير كما سبق الذكر، لقد كان مكسيم رودنسون هو أول من حدد مولد الاستشراق في الغرب بتاريخ 1779م، حيث ظهرت هذه الكلمة لأول مرة بإنجلترا في القرن التاسع عشر، أثناء بحثنا في نشأة الاستشراق وجدنا وجهات نظر مختلفة عن ظهوره لأول مرة، وقد تعود صعوبة تحديد الوقت إلى أنّ الأفكار تسير مختلفة دون أن تحدد بزمان دقيق، وإن لاحظنا فإنّ الاستشراق هو امتداد للتصير، لذلك لا يمنع من أن يحدد ظهوره بالعصور الأولى للدولة الإسلامية، لكنه لم يكتمل بوجهه الجديد إلا في القرن الثامن عشر، مع نشأة المدارس، وانعقاد المؤتمرات، وانتشار البعثات والمعاهد والجمعيات.

" وقد ظهرت كلمة مستشرق في إنجلترا حوالي عام 1779، وفي فرنسا عام 1799، وأدرجت كلمة الاستشراق في قاموس الأكاديمية الفرنسية عام 1838، وأخذت فكرة إيجاد فرع متخصص من فروع المعرفة لدراسة الشرق تلقى المزيد من التأييد" (محمد، الاستشراق بين الحقيقة والتضليل (مدخل علمي لدراسة الاستشراق)، ص20). "وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر عُقد أول مؤتمر للمستشرقين في باريس عام 1873، وتتالي عقد المؤتمرات التي تلقى فيها الدراسات عن الشرق وأديانه وحضاراته، وما تزال تعقد حتى هذه الأيام" (محمد، الاستشراق بين الحقيقة

والتضليل (مدخل علمي لدراسة الاستشراق)، 2000، ص25)، وهكذا نشأ الاستشراق وتطوره عبر العصور، حتى صار حركة ضخمة لا يستهان بها ساهمت في نشر العديد من الأفكار، كما كانت الداعم الكبير للاستعمار.

"إنّ الشواهد الفرنسية المأخوذة عن الجريدة الآسيوية 1824م و: س. دو ساسي 1810، ذات أهمية بالغة، لأنها تُظهر منذ البداية الغموض الذي يلزم مصطلحي مستشرق واستشراق على امتداد التاريخ. فالأول الذي يتحدث عن الاسم الجديد يوضح أنّ التسمية واحدة (لكل الذين يدرسون لغات آسيا) مهما كان تخصص كل منهم، أما الآخرين المأخوذان عن دو ساسي، فإنهم يستعملان المصطلح العام للإشارة بلا ريب وبصفة خاصة إلى المختصين في دراسة اللغة العربية" (ريغ د، رجل الاستشراق، مسارات اللغة العربية في فرنسا، 2008، ص19).

4. الاستشراق الفرنسي:

تعد المدرسة الاستشراقية في فرنسا من أبرز المدارس الاستشراقية وأغناها فكرياً وأخصبها إنتاجاً وأكثرها وضوحاً، ويعود سبب ذلك للصلات الوثيقة التي تربط فرنسا بالعالم الغربي الإسلامي قديماً وحديثاً، وكانت فرنسا موجودة في معظم علاقات العرب بأوروبا في حالات السلم والحرب (نبهان، 2012، ص12). يمكن اعتبار الاستشراق الفرنسي هو أحد ثمار الحركة الاستشراقية المعاصرة، وهذا باعتباره هو أخطر أنواع الاستشراق نظراً لما تحمله من مخططات تهدف إلى السيطرة الثقافية والفكرية، بالإضافة إلى الحروب والصراعات، فكانت لفرنسا العديد من التأثيرات على مستعمراتها وخاصة المجتمعات العربية منها، كالجزائر، وكانت البداية بعد الحرب هو الاستعمار الفكري فبدأت بالغزو الثقافي من خلال اللغة، ولأجل هذا استعان الاستعمار بالمستشرقين لدراسة هذه الشعوب المستعمرة، بداية باللغة استعان بهم ك مترجمين إلى حد التعاون مع بعض الأدباء والصحفيين المعدودين على المستشرقين بدراسة هذه البلاد الجديدة، والتمعن في العادات والتقاليد والجغرافيا التي أبهرت الغرب آنذاك. وكان المستشرق من أهم الداعمين للوجود الاستعماري في الجزائر، وذلك في مد جذور فرنسا في أوصل المجتمع الجزائري مما ساعدها على المكوث بها لفترة طويلة.

لقد تمظهر الشرق في صور متعددة في كتابات وقصص بعض الكتاب الفرنسيين والإنجليز على السواء، نجد من بينهم من اشتملت رواياته وقصصه على صور شرقية مختلفة من أمثال الرّحالة والروائي الفرنسي "غوستاف فلوبير" الذي كان دقيقاً في وصفه للأحداث والأماكن والأشخاص مستمتعا في الوقت نفسه بغرائبية الشرق، فقد كان الشرق في رواياته يتسم بالإثارة والعجائبية بعيداً عن المألوف، إنه متنوع بأمكنته وطقوسه فهو كما يقول "هاري ليفين": "ويعني كل ما يتسم بالغموض الدائم أبداً بدلاً

مما هو مألوف زادت ألفته عن الحد" (سعيد، الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، 2006، ص297).

لقد وصف "فلوبيير" في رواياته التفاصيل لمشاهد بشعة تنفر النفس، وهو كما قال إدوارد سعيد:

" يقدم إلينا فيها المرض كأنما يعرضه في غرفة العمليات الجراحية " (سعيد، الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، ص298)، مما يشعر القارئ بالضّرر. والكتاب الإنجليز على غرار نظائريهم الفرنسيين رسموا صورا نمطية للشرق في رواياتهم وقصصهم التي اصطبغت بصبغة سياسية تسبب إدراك الإنجليزي إدراكا واضحا لنتائج رحلات الحج إلى الشرق، فظهور الشرق في روايات بعض الكتاب أمثال "بايرون" و"سيكوت" وفق رؤية قتالية يتخللها الصراع الذي يميز علاقات الشرق وأوروبا ونجد ذلك في رواية "الطلسم" و"الكونت روبير الباريسي".

5. بدايات الاستشراق الفرنسي في الجزائر:

- الجزائر في الكتابات الفرنسية:

حاول الفرنسيون التعرف على الشرق منذ بدايات عصر التنوير، فبدأ العديد من الكتاب والمفكرين بدراسته وخاصة أن أذهانهم كانت محشوة بأفكار غريبة عنه، فكان ذلك نتيجة لقراءاتهم لحكايات ألف ليلة وليلة المليئة بالغرابة والخيال، لكن كل هذه التخيلات بدأت تتلاشى شيئا فشيئا مع احتكاك هؤلاء الأدباء والفنانين بالشرق وخاصة مع التوسع الاستعماري، إذ أصبح من الضروري دراسة الآخر الشرقي المختلف عنهم. ولإخضاع الشعب الجزائري، ولتكمّل مساعيها استعانت فرنسا ببعض العقول الفرنسية لدراسة الإنسان الجزائري وباتت هذه الخطة المتبعة هاجسا لا بد منه. " كان لا بد للاستعمار من جهة أخرى وفي مرحلة معينة من مراحل الاحتلال من خلق إيديولوجية تبرر وجوده ويستند إليها في استمرار احتلاله للبلد، وكان العمل في هذا الاتجاه يمضي نحو اتجاهين متعاكسين، الاتجاه الأول هو نسج أساطير تكون بمثابة مبررات تسبغ على وجوده نوعا من الشرعية، ويعطي له الحق في إعمار الأرض، والاتجاه الثاني يتمثل في العمل على نفي وجود الآخر (المستعمر) وطمس تاريخه وتشويهه عندما يكون طمسه غير ممكن، وقد اشترك في هذه المهمة مؤرخون وباحثون في الآثار، ومستشرقون وعلماء اجتماع وعلماء أجناس ولغويون وأدباء، وبالطبع اشترك في هذه المهمة عسكريون ورجال دين..." (منور، 2007، ص76-77).

في بدايات الاستعمار رسم المُعَمِّر الجزائري في أبشع صورة، فهو ذلك البدائي المتوحش الذي تحكمه الغرائز والنزوات، وكانت البدايات الأولى للكتابة عن الجزائر تركز فقط على المسكن والملبس، والأكل، والشرب والرقص والفولكلور والحرف والعادات والتقاليد، فنُظِّهر لنا هذه الصورة المغلوطة الجزائري على أنه إنسان بدائي معزول، وكانت هذه هي الصورة النمطية للجزائريين في فرنسا، وكانوا يسمونهم

"بالأهالي" (Les Indigènes) كأسلوب لاستصغارهم واحتقارهم، وعلى إثرها قِدم الآلاف من الأوروبيين الذين جاءوا لاكتشاف هذه البلاد الجديدة. " إن الفرنسيين لم يكتشفوا الجزائر سنة 1830م فقد كتبوا عنها قبل ذلك، وهي كتابات تمثل عنها صورة غامضة ومشوهة، فهي مستوحاة من معاداة الغرب للشرق والتعصب الديني والتفوق المادي." (سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1954/1830)، 1998، ص379) ومنذ البدايات الأولى للاستعمار بدأ الكتاب والمؤرخين الكتابة مرة أخرى عن الجزائر، واستطاعوا أن يتعرفوا على ذلك البلد الذي طالما كان عصيا وغامضا عند الأوروبيين، فاطلعوا على العادات والتقاليد، وهكذا أصبحت الجزائر موضوعا للكتابة ومصدرا لإلهام العديد من الأدباء وذلك لتأثير طبيعة الجزائر وسحرها عليهم.

كان غالبية المثقفين الفرنسيين الذين جاؤوا إلى الجزائر أو ولدوا فيها من الحركة الرومانتيكية الأدبية، وهذا ما يلاحظ من خلال معالجتهم في الكتابة صورة البلاد وطبيعتها وأثرها في نفوسهم، فتحدثوا عن السكان ونمط عيشهم والعادات والتقاليد وتأثير الأجواء فيهم سواء الطبيعية وحتى الظروف الاجتماعية، ففتنوا أيضا بسماء الجزائر وبحرها وخضرتها. فانتشر نوع من الأدب كتبه الفرنسيون يشرح طريقة العيش في الجزائر يقدم للزائر الجدد لهذه المستعمرة الحديثة العهد بالاستعمار، وقد زارها كبار الكتاب والأدباء أمثال: شاتو بريان (Chateau Briant)، أوجين فرومنتان (Eugène Fromentin)، ومونترلان (Monterlon)، أندريه جيد (Andre Gide)، وفلوبير (Flaubert) وألفونس دوديه (دوديه، (1897/1840)) (Alphonse Daudet)، وغاي دي موباسان (Gay de Maupassant) وغيرهم، وبعضهم اتخذ من الجزائر مقاما له مثل فرانس فانون (Frantz Fanon)، الذي ولد في المارتينيك وأقام في الجزائر منذ 1953م حتى توفي سنة 1961م، ألف كتابه الشهير "المعذبون في الأرض". وبعضهم زارها لجمالها وما سمعه عنها فانبهر بها، وبعضهم الآخر جاء للفضول الأدبي والفني وهذا ما حدث مع "أوجين فرومنتان" الذي جاء إلى الجزائر سنة 1848م، وزار معظم الأماكن التي كانت تحت الحماية العسكرية الفرنسية، فأعجب بصحرائها وسواحلها.

ومن الموضوعات التي شغلت هؤلاء الكتاب، " المرأة والعادات فتحدثوا عن وضع المرأة الاجتماعي واهتموا بما أسموه بالحياة الريفية، فألف "يوجين دوماس" كتابا كاملا عن المرأة العربية كما وصف عادات البربر في الجبال. واهتم الكتاب أيضا بالقهوة العربية والملابس والأعياد الإسلامية والمواسم، مثل شهر رمضان، وزيارات القبور عند المسلمين، وحياة الزوايا" (تاريخ الجزائر الثقافي، (1954/1830)، 1998، ص384-383). يرى بعض النقاد أن الجزائر كانت ميدانا فسيحا للروائيين، فمعظم الروائيين الفرنسيين استوحوا موضوعاتهم من البيئة الجزائرية، " ومن بين الأعمال الروائية المهمة ما كتبه "هيغ لورو" بعنوان "رجل الساعة" وهو يعني به الباش آغا

الحاج محمد المقراني، وموضوع الرواية هو ثورة 1871م، رواية سخرت من رجال الدين ومن الثوار وكان إطار الرواية كله جزائرياً" (تاريخ الجزائر الثقافي، 1954/1830)، 1998، ص385). فانتعش الأدب الفرنسي بتأثره بالطبيعة الأسرة التي ألهمت معظم الأدباء الأوروبيين، بالإضافة إلى تأثير الثورة في أفكار البعض منهم، فكانت لهم آراء سياسية وفكرية مثل ما هو الحال بالنسبة لإيزابيل إيرهارت وإتيان ديني.

وفي بداية الاستعمار للجزائر كان معظم الذين يكتبون باللغة الفرنسية في الجزائر من أصل أوروبي وقد كانوا أبواق الاستعمار، رغم أنها كانت أبواقاً هزيلة لم تستطع أن تتغنى بفضائل الاستعمار الفرنسي، وهذا ما أشار إليه المفكر الجزائري "مصطفى الأشرف": "منذ دخول الاستعمار مدة تناهز قرناً من الزمان، لم تعرف الجزائر أدباً بالفرنسية سوى ذلك الذي كتبه كُتاب من أصل أوروبي، ظلوا يتغنون فيه بالاستعمار غناء تافها... وأعمالهم تعكس احتقار الإنسان والعنصرية والكذب." (Lacheraf, 1963, p730)

فمعظم الأدباء كان هدفهم في البداية هو السياحة فسفرهم من باريس إلى هذا البلد الجديد كان مجرد هروب من الضباب للتمتع بجو الشمس، هربوا من الازدحام للبحث عن الهدوء، مثل "هيج لورو" (HighesLeroux)، وروبرت راندو (Robert Randau) و"فرديناند دوشين" (FerdinandDuchène)، شارل كورتن (Charles Courtine)، وأهمهم كان "تيوفيل كوتيي" (Theophile Gautier) الذي فُتن بالجزائر إلى درجة اعتبرها بلداً لا يستحقه الجزائريون، فالجزائر بالنسبة لهم كانت جنة مهجورة وبحر هادئ وسماء صافية فاهتموا بتصوير هذا الجمال من خلال أعمالهم، ولا تختلف نظرة هؤلاء عما جاء في مذكرات بعض قادة الجيش الفرنسي، وذلك من خلال ما ورد في مراسلاتهم الحربية عن المستعمرة الجديدة مسحورين بجمال طبيعتها وجوها الرائع.

- أوجين فرومنتان:

في القرن التاسع عشر تألق في فرنسا اسم "أوجين فرومنتان"، بوصفه شاعراً وناقداً، وفي عام 1847م رسم أولى لوحاته، التي خطَّ بها مسار حياته الفنية فيما بعد، ليصبح من أشهر الرسامين المستشرقين في العالم، تميّز إبداع "فرومنتان" بالتعلق المرّضي بقيم البراءة والصفاء... فجاءت كل أعماله محاولة في الكشف عن هذه القيم في الأشياء وفي الناس وراء السكون والصمت الظاهرين، حيث زار "فرومنتان" بلاد شمال أفريقيا، واستطاع أن يطبع في ذاكرته مشاهداته فيها، ومناظرها الطبيعية، ناهيك عن شعوبها، ومبانيها... الخ، ومن ثمّ عالج ما وعته ذاكرته من مشاهد في لوحات فنية خلّدت اسمه في مجال الفن.

زار "فرومنتان" الجزائر ثلاث مرات، ففي عام 1846م كانت رحلته الأولى بدعوى من صديقه الرسام "شارل لابي" (Charles Labbé)، وكانت زيارته هذه برفقة أحد الأصدقاء "دي مينيل" (DeMesnil)، وكان ذلك في 12 من مارس وأقام في مدينة

البلدية من 14 مارس إلى غاية 01 أفريل، فزار منطقة الشفة ومليانة والقليلة والمدينة ورغم أن هذه الرحلة لم تدم طويلا إلا أنه سجل فيها كل ما شاهده في كتابه "صيف في الصحراء" (Fromentin, Un été dans le Sahara, 2010, p259-260). وكانت الزيارة الثانية في شهر أكتوبر سنة 1847م رفقة الرسامين "شارل لابي" و"سالزمان" (Salzemen)، وكانت رحلته هذه إلى مدينة الجزائر والبلدية وتيبازة وسكيكدة، ومنها إلى قسنطينة، وعين مليلة وباتنة وبسكرة، التي وصل إليها في 23 فيفري 1848م، وأقام بها حتى 13 أفريل، فزار واحات الجنوب مثل سيدي عقبة وطولقة، دامت رحلته حوالي ثمانية أشهر وعاد إلى الجزائر العاصمة في 19 ماي 1848 (Un été dans le Sahara, 2010, p260). وأطول رحلة قام بها كانت رفقة زوجته وذلك بعد أربع سنوات من رحلته الثانية، وكان ذلك في 27 من شهر نوفمبر 1852م، حيث زار خلالها البلدية، والأغواط وشاهد في طريقه المدينة، قصر البخاري وعين وسارة والجلفة وغيرها...

وعلى إثر رحلاته عرض ثلاث لوحات عام 1847م، نال من خلالها شهرة كبيرة ورحلته الثانية سنة 1847م والثالثة سنة 1852م كانت برعاية السلطات الرسمية الفرنسية في الجزائر، وقعت الجزائر في دائرة اهتمامه منبها بسحر جمالها معبرا عنه بالريشة والقلم ومن جملة ما أنجزه "فرومنتان" كرسام موهوب: "صيد الغزلان" - "واحة النخيل" - "مخيم من جبال الأطلس" - "هبوب الريح في الصحراء" - "لصوص الليل" - "بلاد العطش" وغيرها...

كان أسلوبه في تسجيل الحقائق مرتبطا بحواسه كرسام مرفه الحس، وذلك من خلال كتابيه "صيف في الصحراء" سنة 1857م و"سنة في السهل" سنة 1858م، وقد اشتمل كتابه الأخير على الكثير من التقارير والمواضيع المتنوعة في حلة أدبية وقوالب قصصية تحت عنوان جدير بالاهتمام، وهذا ما دفع القراء إلى التفاعل مع أفكار الكاتب وما أجلاه من صور عن حياة الناس وطباعهم وعن البيئة الطبيعية التي أبهرته. بنظرة رسام لا كاتب وهذا انعكس على الموضوعات التي عالجه في كتابه الثاني "سنة في السهل"، الجزائر بالنسبة إليه أصبحت موضوعا للكتابة والإثارة والبحث المستمر، فالصورة التي نقلها "فرومنتان" عن الجزائر تبقى تمثل شهادة على قدر كبير من الأهمية في إلقاء الضوء على هذه الفترة من تاريخ الجزائر، كما أنها غدت خيال الغربي عن الجزائري والعربي، وقد كانت في معظم الأحيان تمثل صورة سلبية.

- غي دي موباسان:

لا يختلف أحد على أن كتابات "غي دي موباسان" عن الجزائر احتوت على العديد من الصور فذكر كثيرا المناطق التي زارها آنذاك، ثم جمعها في كتابه في "بلاد الشمس" (Maupassant, 2003, p12) أو "رحلة إلى الجزائر"، بالإضافة إلى مقالاته المنشورة في صحيفة "القولوا" (Le gaulois) (Maupassant, 2003, p18)، فعلى سبيل

المثال جاء وصف لمدينة الجزائر الذي تغنى بجمالها وبجمال مبانيها: الفنادق الفرنسية، الحي الفرنسي، وكذلك المدينة العربية بمنازلها الصغيرة البيضاء، المتراسة الواحدة بجانب الأخرى، فوصف الحي الأوربي بالجزائر كأنه مدينة جديدة في جو لا يلائمها قط، فذكر الحانات في حي مصطفى باشا، المحلات والجوالين الذين يبيعون سلهم في الطريق. وكان لمقاطعة الجزائر الحظ الوافر في كتاباته، ويقول في ذلك أن الجزائريين، والسكان الأصليين للجزائر العاصمة لا يعرفون من وطنهم إلا منطقة "متيجة"، فهم يعيشون في راحة في أجمل مدن العالم، والمستعمرون الذين يعيشون هناك ينظرون إلى مدن أخرى كالأغواط وبوسعادة وسعيدة كأنها آخر العالم، "لا يمكن التجوال والترحال خارج منطقة "متيجة" دون أن يكون الشخص مرفقا برجال من السلطة العسكرية، فبفضل العسكريين قام "موباسان" برحلته البطولية خارج الطرق المعروفة متنقلا من قبيلة إلى أخرى". (deMaupassant, 2003, p18)

زار العديد من المدن فجميع كتاباته كانت تدور حول رحلاته وتجواله في الجزائر وفي حقبة من أهم الحقب، وأعطى أحكاما واستنتاجات لا علاقة لها بالواقع الجزائري الذي كان يعيشه السكان، فلم يحكم عليهم بواقعية كما كان من عادته أن يكتب في العديد من رواياته فلقد كانت له أحكام مسبقة. تحدث "موباسان" كثيرا عن المدن الجزائرية، وفيما يخص قضية توزيع الأراضي من قبل الإدارة الفرنسية "فموباسان" يرى أن هاته الأراضي تعطي أكثر في أيدي المعمرين أفضل من العرب ولكن طريقة التوزيع لم تعجبه.

يعترف "موباسان" بتفوق العرب على الجيش الفرنسي لأنهم أبناء هذه الأرض، ولعل الشرط الرئيس في جل كتابات المستشرقين، الأدباء منهم خاصة هي النظرة المسبقة والدونية للشرق الذي نظروا إليه كرمز لكل ما هو غرابي وشاذ ومنحرف، كما أن الإنصاف يستدعي أيضا أن ننوه بصدق "غي دي موباسان" في نظريته للاستعمار الاستيطاني الفرنسي في الجزائر أيضا. فلم يرسم صورة بالأبيض والأسود لمشاهداته، وأصاب نقده الاستيطان والاستعمار الفرنسي كما العرب، الذين من الجلي أن نقده لهم ينم عن عدم معرفته بهم وبثقافتهم، فقد كان يحتفظ دائما في ذاكرته على تلك الصورة النمطية للعربي المأخوذة ممن سبقوه من كتاب ومستشرقين.

ولا ننسى أن نذكر بعض الرسّامين الذين أبدعوا في لوحاتهم، فلم يتركوا جانبا من جوانب الحياة الاجتماعية إلا ووصفوه، فمنهم من أقام سنين طويلة متجولا من مكان لمكان "كأوجين دي لا كروا (Delacroix)"، والرسام الكبير "إتيان ديني" الذي أقام في مدينة "بوسعادة" وتوفي فيها، معتنقا الإسلام وهذا دليل على مدى تأثيره بطبيعة العيش في الجزائر، فغير اسمه إلى نصر الدين ديني. لا يمكن حصر جميع الملاحظات والنصوص التي كتبها الرحالة الفرنسيون في الفترة الاستعمارية، فقد كانت عديدة، وكانت الصحراء في معظم الأحيان موضوع أعمالهم والتي لم تخل من وصف للأرض والرمال كما وصفوا العديد من المظاهر البشرية الاثنوجرافية، كالخيمة

والعرس والفتنازيا، والوليمة، وحياة الطوارق، والجّمال ولم يهملوا المظاهر الطبيعية: كالتلال والكثبان، والجبال الصخرية، والأراضي الممتدة الرملية، ومع كل هذه الأوصاف للصحراء وطبيعتها القاسية، نجد قراءات أخرى وضعها بعض الكتاب عن السياسة الاستعمارية الممارسة في الصحراء.

أما بالنسبة للفترة (1895-1920) فإن أبرز الكتاب الاستعماريين اتفقوا على أنه لم يكن هناك حوار بين الجزائريين والأوروبيين في الجزائر، إن مجموع الأعمال باستثناء أعمال "إيزابيل إبراهيمات" لا تتشغل بالأهالي إلا لتصف ردة فعله تجاه الاستعمار أو العكس، وكانت الأعمال تعكس حقيقة الاستعمار لأن مختلف الجماعات بقيت عوالم منغلقة على نفسها إلى غاية الحرب العالمية الأولى.

6. خاتمة:

كانت أغلب الأعمال التي ساهم بها المستشرقون في الجزائر تسعى للقضاء على اللغة العربية الفصحى، وذلك بمحاولة تفكيكها إلى عدة لهجات مختلفة، بالإضافة إلى نشر الأمية والجهل بين الأهالي، من الصعب جدا أن نجد تطابقا بين ما يكتبه المستشرقون والباحثون الغربيون عتّا، وعن ديننا، ولغتنا وعقيدتنا، وبين الواقع الذي نحياه يوميا، فكل الكتابات عن بلدنا سواء كان حديثا أو قديما تهمنا وعلينا الوقوف عليها والبحث فيها وفي خباياها، ومعظمها كانت بدافع الهجوم على الإسلام، فكان دافعها التغلغل في الذهنيات وقلب الأفكار بالتحريف والتشويه إلى التدليس، لنقل صورة عتّا مغايرة تماما عما نحن عليه. وهذا ما حدث فعلا من خلال كتابات بعض الأدباء الذين تحدث عنهم إدوارد سعيد في كتاب الاستشراق أمثال موباسان والذي كتب عن الجزائر بذهنية المستعمر لا بحيادية الكاتب الصحفي المستكشف لبلد جديد، على العموم يمكننا القول أنّ الاستشراق في الجزائر جاء بخلفية فكرية فعظم المستشرقين خدموا الاستعمار أكثر مما خدموا الجانب المعرفي الذي كانوا يسعون إليه رغم جهودهم الكبيرة المتمثلة في إنشاء المدارس والمعاهد التي تحفز على دراسة اللغة، حتى وإن كان هدفهم نبيلاً في البداية إلا أنّ الاستعمار الفرنسي استفاد من خدماتهم من خلال الترجمة والتواصل مع الأهالي، وجاء بعدهم من زيّف الحقائق وساهم في نشر الجهل باستهداف الدين واللغة، وحتى الأجnas والأعراق، فساهموا في انتشار القبلية، محاولين تشتيت أفراد الشعب الواحد.

7. قائمة المراجع:

- 1- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، (1954/1830)، ج06، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998.
- 2- أحمد سمايلوفتش، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 1998.

- 3-أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي نشأته وتطوره وقضاياه، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007.
 - 3-إدوارد سعيد، الاستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء، ترجمة كمال أبو ديب، ط2، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، 1995.
 - 4-إدوارد سعيد، الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006.
 - 5-إسماعيل علي محمد، الاستشراق بين الحقيقة والتضليل (مدخل علمي لدراسة الاستشراق)، ط3، 2000.
 - 6-دانيال ريغ، رجل الاستشراق، مسارات اللغة العربية في فرنسا، ترجمة: إبراهيم صحراوي، دار التنوير للنشر والتوزيع، الجزائر، 2008.
 - 7-الطيب بن إبراهيم، الاستشراق الفرنسي وتعدد مهامه خاصة في الجزائر، دار المنابع، الجزائر، 2004.
 - 8-علي إبراهيم أحمد النملة، الاستشراق والدراسات الإسلامية، مكتبة التوبة، الرياض، 1998.
 - 9-فاضل محمد عواد الكبيسي، فيليب حتى عصر النبوة والخلافة الراشدة "دراسة نقدية"، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان، 2005.
 - 10-محمد البهي، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، دار الفكر، بيروت، ط6، 1973.
 - 11-محمد فاروق نبهان الاستشراق تعريفه ومدارسه، وآثاره، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم الثقافية، الرباط، المغرب، 2012.
 - 12الموسوعة العالمية، مؤسسة آمال، الموسوعة للنشر والتوزيع، السعودية، ط2، ج1.
- المراجع باللغة الفرنسية:**

- 1-Eugène Fromentin, Un été dans le Sahara, présentation et notes par Anne Marie Christine, Editions flammariion, Paris, 2010.
- 2-Guy de Maupassant sur les chemins d'Algérie, Textes rassemblés et présentés par Jean Emmanuel, Préface d'Olivier Frébourg, Magellan et Cie, Paris, 2003.
- 3-Moustafa Lacheraf, « L'avenir de la culture Algérienne », In : les temps Modernes, No 209 oct. Paris, 1963.